التصوف بالمجتمع السوداني: دراسة للواقع الديني المتغير

د. عثمان سراج الدين فتح الرحمن*

ملخص

يهتم هذا البحث بدراسة التغيرات التي حدثت في الطرق الصوفية بالسودان بالتركيز على جانبين الأول هو تغير الصورة النمطية والتقليدية للشيخ الصوفي وتابعيه، الثاني يتعلق بالتغيرات التي احدثتها نمو تيارات دينية جديده في الفترة من العام 1989 وبصفه خاصة التيار السني السلفي وظهور المذهب الشيعي، . وذلك من خلال دراسة عدد من المتغيرات الاجتماعية والسياسية أهمها صعود التيار الديني السياسي وسيطرته على مقاليد الحكم، تنامى حالات التعصب السني المتشدد تجاه الطرق الصوفية . ومن أهم النتائج التي خلص اليها البحث أن الواقع المجتمعي والسياسي قد فرض تحولات كبيرة في صورة الصوفي التقليدي بالمجتمع.

الكلمات المفتاحية:

التصوف، الطريقة الصوفية، الإسلام السياسي، التعصب الديني، السلفية. الصوفية الجديدة

Abstract

The research problem relates to two aspects. The first concerns the consciousness of Sufism by changing the image type towards them, and the second relates to the collective selfand the changes that have occurred around the Sufi other. The researchstudy the problem through a number of changes brought about by the period of the rule of political Islam in Sudan at the period from 1989 to date. One of the most important research result is that societal and political reality has imposed great transformations in the image of the traditional mystic in society.

Keywords :Sufism, Sufi road, Political Islam, religious fanaticism, Salafist. New Sufism

تقديم:

* أستاذ مشارك بقسم الاجتماع والخدمة الاجتماعية، جامعة عجمان. o.ahmed@ajman.ac.ae

الحركة الصوفية السودانية مكوناً أساسياً في التركيبة المجتمعية والدينية السودانية، الأمر الذي جعل منها فاعلاً اجتماعياً هاما في فى الحياة الاجتماعية، وقد اكتسبت هذه الأهمية من خلالالبعد التاريخي والاجتماعي، إذ تعتبر من أوئل المذاهب الدينية السنية فى السودان، ولقد واجهت الصوفية فى التاريخ المعاصر وخاصة فى خلال الثلاثة عقود الآخيرة كثير من التغيرات المجتمعية التي أثرت على مكانة الصوفية الدينية والمجتمعية من هذه التغيرات نمو عديد التيارات الدينية وخاصة التيارات السلفية.

مشكلةالبحث:

يعمل البحث على فهم واقع الصوفية وما أصابها من تغيرات في السودان خلال الفترة من العام 1989 حتى تاريخه، باعتبار أن هذه الفترة شهدت تحولاً واضحاً في خارطة الواقع الديني، الفاعل الرئيسي فيها هو تيار الإسلام السياسي.

هذه المتغيرات في الخارطة الدينية يمكن إيجازها في النقاط التالية:

1. صعود التيار الديني السياسي وسيطرته على مقاليد الحكم.
2. انفتاح السودان نحو التيار السلفي الجهادي، (الأفغان العرب) خاصة في الفترة من 1990-1993.
3. تحول الحرب السياسية في جنوب السودان (قبل الانفصال) إلي حرب جهادية.
4. تنامى التيار السني المتشدد.
5. ظهور حالات الاغتيال السياسي للبعثات الدبلوماسية والعنف تجاه الآخر الديني.
6. ظهور الإسلام الشيعي المنظم وخاصة في الفترة ما بعد العام 1993.
7. تحول الطرق الصوفية الريفية نحو المراكز الحضرية.
8. تنامى حالات التعصب السني المتشدد تجاه الطرق الصوفية.

ومن المتوقع أنتلعب هذه المتغيراتدروراً كبيراً في تغيير الصورة النمطية للصوفي الولي أو الشيخ حياً كان أو ميتاً، والتي تجذرت في ذات الآخر المجتمعي لتجعل منها أحد مكونات الطرق الصوفية، فدائماً الشيخ الصوفي مكان التقدير والتقديس بما لديه من قدرات روحية وكرامات.أنظر:(ودضيف اللة،محمد،1993) (أبوعلى،أحمد،1961)مما جعل الصوفي المعاصر يفقد ذلك التأثير في الواقع المجتمعي.

إذن نحن نبحث في تغير واقع ديني بالنسبة للصوفية، حول الثابت والمتحول من خلال وعي الصوفي بدلالة المتحول فيالبنية المجتمعية وانتقاله لحالة متحوله

فى الصورةالنمطية المتمثلة فى الكرامة والخوارق الروحية والاعتقاد في قدراته الخارقة إلى إدراك متحول في الواقع الديني والمجتمعي.

مجملاً المشكل البحثي يتعلق بجانبين أولهما وعى الصوفي باهتزاز صورته النمطية، وثانيهما يتعلق بالبنية الاجتماعية وما أحاط بها من تغيرات حول الصوفي التقليدي.

مدخل نظري:

يمثل الاتجاه البنائي الوظيفي مدخلاً نظرياً لهذاالبحث من منطلق انها تدرس البناء المتغير في وظائفه، وفي ذلك تستعين بمنطلقات فكرية في هذا الاتجاه التقليدي والمحدث منه، ويمثل "دوركايم و" فيبر" مرجعين أساسين للبحث فيما قدماه حول علاقة الدين والمجتمع، وقد استفاد البحث من "دوركايم" في فكره الذي يظهر بكتابة "The Elementary Forms of the Religious Life" وذلك في التركيز على أن تصور انتقال الروح أو(البركة) من المقدس الى أشياء دونه ذات علاقة به، نجده ظل يتنقل فيالأديان الحديثة حتى جاءت الفكرة لدينا في الإسلام أن (بركة) الشيخ تحل في مكانسكنه وفي عصاه وعند وفاته تنقل (البركة) الى ضريحه ويصبح المزار مكانيطلب فيه الناس الشفاء من الأمراض بمجرد التمسح بتابوت الشيخ المتوفي. هذه العلاقةمهمة لأنها تلقي الضوء على مستوى من الاعتقاد يمكن ان يفسر كثير من السلوكالاجتماعي الذي يحاول البحث أن يحلل(E,Durkheim,1912,p.p190211)

واهتمامنا بما كتبه فيبر في أنهأظهر علاقة الدين والمجتمع من كونها محاولة لربط الدين ذو الجانب الغيبي بالواقع المادي في أرقي تجلياته حتى الآن وهو النظام الرأسمالي. لا شك أن الدراسة استفادت من تحليل فيبر للوضع الذي يقوم في الإسلام بين الأولياء الصالحين واتباعهم وكيف أن معتقدات هؤلاء الاتباع تشكل توجيه حياتهم وتخلق الوضع المعقد للظاهر الدينية من الناحية الاجتماعية، وكذلك في أهمية الدين في تشكيل الوعي الاجتماعي والسياسي. وخاصة في كتابات فيبر. (On fields, see .M.Weber, 2001)

منهجية البحث:

اعتمد البحث على نوعين من أساليب المنهج فى علم الاجتماع، هما المنهج الوصفى على اعتبار أن موضوع الدراسة من الموضوعات الملاحظة والمشاهدة على أرض الواقع، وايضاً اعتمد البحث على المنهج التاريخي من خلال الاستفادة من تاريخ الاحداث الاجتماعية المؤثرة على واقع موضوع

البحث، كما أن استخدام المنهج التاريخي تم الاستفادة منه فى المقارنة فى تطور وتغير الواقع الديني فى المجتمع السوداني.

خارطة التدين الإسلامي في السودان بعد العام 1989:

منذ أن نال السودان استقلاله في العام 1956 نكاد نلمح تيارات إسلامية تتجاذب الحالة الدينية في السودان منها المتصوفة وتيار الإسلام السياسي المتمثل في حركة الإخوان المسلمين وحركة أنصار السنة المحمدية (السلفية التقليدية)، وجميع هذه التيارات تمثل الإسلام السني، إضافة إلى نسبة المسيحين الأرثوذكس والكاثوليك، الأولي يمثلها الأقباط السودانيين الذين ينحصر وجودهم في الخرطوم العاصمة ومدينة عطبرة وشندي شمال الخرطوم، الثانية يمثلها سكان جبال النوبة وجزء من جنوب النيل الأزرق.وتشير بعض الدراسات أن حوالي 16 مليون شخص، يمثلون نسبة 60% من أهل السودان المسلمين مرتبطون في ولائهم الديني بالتصوف، و10% ينتمون في ولائهم الديني إلى الجماعات السلفية التقليدية، أما النسبة المتبقية فهي تتراوح بين الإخوان المسلمين واللا منتمين إلى أي تيار.(مكي،حسن،2007،ص 10-11)

لكن هذا الواقع الديني أصابه كثير من الضعف تحت تأثير فاعل الإسلام السياسي الذي سيطر على مقاليد الحكم في السودان منذ العام 1989، فقد أصبحنا أمام خارطة دينية جديدة، فالناظر إلى فكر الإخوان في السودان - عبر مسمياته المختلفة- يجد هنالك تغيراً واضحاً في العمل الحركي قبل الاستيلاء على السلطة وما بعدها تحت مسمى "التمكين" والذي أوجَّد له مبرراً فقهيا عند عراب التيار الإسلامي (حسن الترابي)، بدءاً بما أطلق عليه بالمشروع الحضاري الإسلامي، ثم تحويل المجتمع إلى آلة حرب جهادية داخلية بإعلان الحرب السياسية في جنوب السودانوتحويلها حرب عقَّدية بين المسلمين والمسيحيين بعد أن كانت حرب سياسية، ثم تبع ذلك إعلان ما يسمي بالمؤتمر الشعبي العربي الإسلامي تحت قيادة الشيخ حسن الترابي وهو تنظيم قُصد به تجميع الحركات الإسلامية في العالم العربي والإسلامي في كيان موحد يكون مركزه السودان، مما فتح الباب على مصراعيه لكل التيارات الإسلامية المغضوب عليها في بلدانها بالاستقرار في السودان، إضافة إلي دخول العناصر الجهادية والتكفيرية خاصة المجاهدين العرب الأفغان الذين استقر عدداً كبيراً منهم في السودان في العام 1993، هذا الوضع جعل التيار السياسي الإسلامي أكثر تقاربا مع كثير من التيارات الإسلامية المتشددة الأخرى في السودان، مما أدىإلي كثير من التغيرات علي مستوى هذه التيارات الإسلامية.

فالتيار السلفي التقليدي الذي يمثله أنصار السنة المحمدية قد بدأ تياراً دعوياً بقصد تصحيح العقيدة مع التركيز علي موضوع البدع في الدين والتي قُصد بها الممارسات الصوفية، إضافةً إلي مواجهة التنصير في جنوب السودان وجبال النوبة،(العالم،محمد،1998،ص.219)، وكان طريقهم في ذلك المحاضرات في الميادين العامة ومنابر المساجد المعروفة باسم مساجد أنصار السنة المحمدية، وقد نجحوا في بداية دعوتهم استهداف الطبقات الشعبية من العمال وصغار التجار، إلا أن الواقع السياسي المعقد ما بعد 1989 أفضى إلى كثير من المشكلات الفقهية حول عمل الجماعة أدي إلي انشقاقات داخل الجماعة كان لها تبعات خطيرة على الخارطة السنية في السودان، أول هذه الانشقاقات ظهر في العام 1990 بظهور جماعة اللا جماعة التي تقول ببدعة الانتماء للجماعات الإسلامية وتحرم المعارضة السياسية*، واللافت للانتباه إن أبرز قيادات هذه الجماعة بالسودان داعية سوري يدعى (خالد حسن عشيش) استقر بالسودان في العام 1993 وهو من المجاهدين العرب الأفغان.(ابراهيم،منتصر،1997،صز28)

ثاني هذه الانشقاقات في جسم التيار السلفي التقليدي هو ظهور جماعة الكتاب والسنة في العام 1992 والتي وجهت عملها نحو ما أسمته بدع وشرك الصوفية في السودان (ابراهيم،منتصر،1997،ص.28). وأيضاً ظهور جماعة أخرى من صلب الحركة السلفية التقليدية في العام 2007 تسمى جماعة أنصار السنة الإصلاح، وهذه الحركة لها مواقف نقدية لكل الحركات الإسلامية في السودانوالتي انشقت بسبب مشاركة السلفية التقليدية في الحكومة.

داخل المدرسة السلفية ومع بواكير العام 1992 ظهرت مجموعة تيارات سلفية متشددة وتكفيرية سعت نحوتكفير العديد من المثقفين والكتاب والسياسيين، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك باستخدام العمل العسكري لتصفية من كفرتهم، أبرزها الجبهة الإسلامية المسلحة التي تزعمها الشيخ السلفي المتشدد محمد عبد الكريم والذي كان يمثل ظاهرة مجتمعية في بدايات التسعينات بفتاويه التكفيرية والعلنية تحت مسمع ومرأي الأجهزة الأمنية والتي أفردت له مساحة

*هذه المدرسة امتدادًا لمدرسة محمد أمان الجامي وربيع الهادي المدخلي في المملكة العربية السعودية والتي تقول ببدعة الانتماء. كما تتبنى هذه الجماعة المنهج الدعوي للشيخ ناصر الدين الألباني الذي يقوم على ما يسميه منهج التصفية والتزكية، ويعني بها تصفية كتب التراث من الحديث الضعيف والمرجوح وتربية الأتباع على ما صح من ذلك. وارتبطت هذه المجموعة بحادثة مشهورة، وقعت بمنطقة الخرطوم، حينما أقدم شباب الجماعة على سكب البنزين على جهاز التليفزيون وحرقه على مشهد من الأهالي بدعوى دخوله على النساء في مخادعهن دون استئذان.

كبيرة لبث أفكاره التكفيرية عبر منبر مسجدهبضاحية الجريف غرب بالخرطوم.

هذه الفوضى الفقهية التي سادت في السودان بعد العام 1989 أفضت إلى حالة دينية متشددة وتكفيرية يمكن أن نعطي لها توصيف واقعي كما يلي:

1. في صيف عام 1994، قامت خلية من السلفيين الجهاديين تحت قيادة عبد الرحمن الخليفي، وهو ليبي الجنسية، ضمن العرب الأفغان المجاهدين الذين قدموا إلى السودان، بالهجوم المسلح على مسجد أنصار السنة المحمدية بمدينة أمدرمان وقتل عدد من المصلين.
2. في عام 2000، وقعت مجزرة أخرى ضد جماعة أنصار السنة، وذلك عندما قام أحد شباب التكفيريين، ومعه ثلاثة آخرون بإطلاق الرصاص على المصلين في صلاة التراويح.
3. إهدار دم عدد من المثقفين والصحفيين السودانيين من ضمنهم محمد طه محمد أحمد والذي وجد مقتولا لاحقا مقطوعاً رأسه.(عثمان،صالح،2009،ص.45)
4. في العام 2006 تم الإفتاء بتكفير الشيعة واعتبروهم ليسوا خارجين من ملة الإسلام وإنما لم يدخلوه أساساً، ودعوا لوضعهم والمطالبة بإغلاق السفارة الإيرانية في الخرطوم، كما قاموا بحرق كتب الشيعة التي كانت معروضة في أحد أجنحة معرض الكتاب في الخرطوم..(عثمان،صالح،،ص.117)
5. في أوائل العام 2007، أهدروا دم الأستاذة البريطانية "جوليان جيبوتر" والتي كانت تعمل في إحدى المدارس السودانية لاتهامها بالإساءة إلى الرسول صلّى الله عليه وسلَّم.
6. في العام 2007 تم تكفير الترابي على خلفية إفتائه بجواز إمامة المرأة للرجال في الصلاة وجواز اعتلائها لمنبر صلاة الجمعة. ولحق التكفير أيضاًبالصادق المهدي رئيس حزب الأمة السوداني وإمام طائفة الأنصار الدينية، لأنه أجاز مساواة المرأة بالرجل في الميراث..(عثمان،صالح،،ص.156)
7. في العام 2008 تم اغتيال الدبلوماسي الأمريكي "غرانفيل" وسائقه السوداني بالخرطوم.
8. المصادمات الدموية مع الصوفية في احتفالات المولد الشريف وكان اخطرها في العام 2012.

من المتغيرات الأخرى في خارطة التدين الإسلامي في السودان بعد العام 1989، ظهور التيار الشيعي، وعلى الرغم من ان بعض الدراسين يرون أن الشيعة في السودان ظهرت بوادرها في السودان قبل سيطرة الإسلاميين على الحكم، إلا أن الشاهد يقول بأن الشيعة بصورتهم المنظمة ظهروا مع بدايات

العام 1990 تحت رعاية الحركة الإسلامية، فالرابط بين التيار الإسلامي الممثل في حركة الإخوان المسلمين وإيران الشيعة رابط قوى فقد اعتمد الشيخ حسن الترابي وبصورة مباشرة بعد سيطرة جماعته على الحكم علي الدعم الإيراني السياسي والعسكري والاقتصادي، وكان ذلك مقابل تسهيلات يقدمها النظام الحاكم لنشر الفكر الشيعي في السودان.

وقد ظهر المد الشيعي بصورته الواضحة وسط طلاب الجامعات السودانية ويبدو أن هنالك مجموعات من الطلبة المقربين للنظام الإسلامي وغير المنتمين له هي التي بدأ معها العمل المنظم للفكر الشيعي والذين تم تشيعهم في داخل السودان عبر الملحقية الثقافية الإيرانية، ثم ابتعاثهم إلى الحوزات العلمية في إيران وسوريا. وفي العام 2009 أقيم أول احتفال شيعي بشكل علني في الخرطوم بمناسبة عيد ميلاد "الإمام المهدي، أعلنت بعدها الحسينيات(مكان اداء الشعائر الدينية للشيعة) في العاصمة وولايات السودان المختلفة احتفالاتها السنوية بعيد مولد السيدة فاطمة الزهراء وعاشورا بصفة دورية ومستدامة.

ويعتبر السودان من أكثر البلدان العربية الأفريقية التي تشهد تمددا في المذهب الشيعي، غير أن الأرقام تتضارب حول عددهم، ووجود المذهب الشيعي في السودان أصبح حقيقة معاشه، ولكنّ هناك تضخيما في أعدادهم، ويُعتقد أن من يضخمون عدد الشيعة في البلاد هم منسوبو المذهب أنفسهم، لكن رغم عددهم القليل إلا أن تأثيرهم العقائدي أصبح واضحاً مع التمدد الاستراتيجي والسياسي الإيراني في السودان.

ومعظمالشيعة في السودان يتركزون في العاصمة الخرطوم بصفة أساسية، وفيالناحية الجنوبية الشرقية من ولاية شمال كردفان، وفي ولاية نهر النيل شمال الخرطوم، ويلاحظ وبحسب المصادر الحكومية أن وجود الشيعة وسط الطلاب الجامعيين أضحي واضحاً جداً.

وقسمت المصادر الشيعة في السودان إلى أربعة تيارات شيعية هي: تيار الخط العام، وهو خط الإمام الخميني، وهؤلاءهم الأضعف في السودان. وتيار الإمام محمد حسين فضل الله في لبنان، ويُعتقدأنهم الأكثر وجودا في السودان، وهناك تيار الإمام محمد تقي المدرس من كربلاء في العراق، وهم في المرتبة الثانية من حيث العدد والانتشار. وهناك شيعة سودانيون ويسمون (المحليين)، حيث لا ينتمون إلى أي تيار من التيارات السابقة ولكنهم يؤمنون بالمذهب الشيعي.

وتقول تقارير غير مؤكدة إن للشيعة في السودان نحو 15 حسينية، أغلب هذا العدد في العاصمة الخرطوم، و تشير التقارير إلى أن عملها أقرب إلى السرية،

«ليس تخوفا من السلطات السودانية، حيث تغمض عينيها حيال نشاطها، ولكن تخوفا من الجماعات السلفية»، وحسب التقارير فإن هذه الحسينيات تلحق بها مكتبات مقروءة وصوتية، وعبرها يتم الحصول على بعثات دراسية في إيران (www.Aljazeera.net/2009).

لكن من المتوقع مع تغيرات السياسة الإقليمية وخاصة بعد حرب اليمن والهجوم الشرس الذي تمارسه الجماعات السلفية وتكفير المنتمين للشيعة، أن تعمل الحكومة السودانية على الحد من تمدد المذهب الشيعي في السودان.

الصوفي التقليدي بالمجتمع السوداني:

لا تختلف صورة الصوفي عند السوداني عن غيرها في المجتمعات التي عرفت التصوف، ودائماً ما ترتبط صورة الصوفي التقليدي بشيخ الطريقة الصوفية أو الولي. وقد ظلت هذهالصورة منذ نشأة الطرق الصوفية في بداية القرن الخامس عشر الميلادي محافظة على صورة التقديس فيالمجتمع، برغم التغيرات التي شهدها المجتمع السوداني منذ القرن التاسع عشر الميلادي. (فول،جون،2002،ص.ص229-238)

وتتجلي صورة الصوفي التقليدية في تاريخ المجتمع السوداني بصورة واضحة فيما أورده كتابالطبقات الذي قدم تعريفاً لكل شيوخ الطرق الصوفية في القرنين السادس والسابع عشر الميلادي وما امتازوا به من خوارق وكرامات،إن الصوفي في العقلية المجتمعية السودانية قد أكسَّب المتصوفة نفوذاً اجتماعياً وسياسياً واقتصادياًكبيراً، هذا النفوذ مصدره الاعتقاد في بركة شيوخ المتصوفة (Hassan,Y,1967,p.p120-134)، ورغم التغيرات الكبيرة التي أدخلها التعليم الحديث في المجتمع إلا أن هذا النفوذ الاجتماعي ظل مستمراً(ترمنجهام،سبنسر،1970،ص131)، بل على العكس من ذلك نجد أن المثقفين أنفسهم تحالفوا مع المتصوفة، والمثال الواضح لذلك الطريقة الختمية في السودان.(Krarr, Ali, 1992, p.p47-50)

وتظهر الصورة النمطية لتقديس الصوفي بوضوح في الاحتفالات والشعائر الدينيةالموسمية، وخاصة تلك التي ترتبطبالشيوخ والأولياء المؤسسين للطريقة، وهنا يلعب مسيد* الطريقة الصوفية الدور الديني لتشغيل الدعاية الدينية للولي أو الشيخ، كما أن هذه الاحتفالات تعتبر بمثابة تجديد الولاء لشيخ الطريقة وأسلافه.(سراج الدين،عثمان،1997،ص.ص74-94)

* المسيد هو مركز الطريقة الصوفية والذي يقيم فيه شيخ الطريقة الصوفية.

ويبدو أن عدم خوض المتصوفة في السودان في المسائل الفقهية الدينية وميلهم إلى تقديم الخدمات الاجتماعية للمريدين والأتباع، قد دعم هذه الصورة النمطية للشيخ الصوفي.جانب آخر مهم في مسألة تدعيم الصورة النمطية للصوفي وهو التركيبة القبلية والقرابية للطريقة في نفوس المتصوفة والتي تحدد معالم الولاء الديني للصوفية، حيث ظل هذا الولاء قوياً في المناطق الريفية التي تنتشر فيها الطرق الصوفية، حتى بين الطبقات المتعلمة، انعكس ذلك بصورة مباشرة على الولاءات الدينية (فول،جون،ص.ص238-241). وهذا ما يفسر عدم وجود مركزية للطرق الصوفية الريفية بعكس الطرق الصوفية الحضرية.*

وهنالك من الباحثين من يري أن منالعوامل التي ساعدت في ترسيخ هذه الصورة النمطية لشيخ الطريقة الصوفية النفوذ الاقتصادي الذي تتمتع به الطريقة الصوفية في السودان وخاصة في المناطق الريفية.(الحسن،إدريس،2002،ص.ص33-50).

التعصب السني المتشدد نحو المتصوفة وتأثيره في النمطية التقليدية للصوفي:

يمكن القول إن الفترة الممتدة خلال التسعينيات شهدت تطور ثقافة الجهاد في المجتمع السوداني علي مستوي الممارسة والفعل وبالتالي ضاقت مساحة قبول الآخر وهذا ما يطلق عليه "حيدر إبراهيم""محاولة خلق مجتمع داخل المجتمع جبرا والزاماً والغاء الآخر المختلف"(ابراهيم،حيدر،2008،ص.ص22-30) ويبدو أن الواقع الديني المتغير الذي أشرنا إليه سابقاً تحت عباءة التيار الإسلامي الحاكم قد أفضي إلى مزيد من التشدد تجاه الآخر الديني حتى وإن كان بين أهل السنة أنفسهم. فجماعة الأنا العقدية أدخلت التناحر والتعصب إلى مجتمع ظل يحترم الآخر المختلف على مستوي الدين الواحد.

وقد ساهمت التركيبة السياسية في السودان على إيجاد أفراد متمايزون ومتفوقين، يظنون أنهم يمتلكون الحقيقة الدينية وأن أفكارهم غير قابله للتعديل أو الحوار بسبب مصدرها العقدي، وهذا أحد مصادر التعصب المباشر، فأصبح المجتمع المتحمس للفكرة او العقيدة قابلاً للتحول نحو التعصب بل أنه بصورة أكثر دقه يتمدد من العنف اللفظي التكفيري إلى العنف التدميري، وأصبح لذلك وسائلة المعلنة مما أدي إلى ان يكون الفعل العنيف مبرراً دون الرجوع إلى آليات القانون. وبلخص بعض الباحثين هذا الوضع في معادلة بسيطة قائلة إن

* لذا نلاحظ تعدد التسميات للطرق الصوفية في السودان وخاصة وسط الطريقة القادرية التي تعتبر من أكبر الطرق الصوفية وأوسعها انتشارا بالجزء الأوسط من السودان.

التسامحوالاختلاف يتراجعان أمام العنف المادي واللفظي.(ابراهيم،حيدر،1991،ص.ص125-126)

ولقد تعرضت الطرق الصوفية للفعل التدميري الممنهج من قبل التيار السني المتشدد لإضعاف مكانتها الدينية والمجتمعية في السودان، الأمر الذي أثر كثيراً بصورة الآخر الصوفي في الذات المجتمعية، ويظهر ذلك فى التعدي على أضرحة وقباب الصوفية ومحاولة إزالتها فى عديد المرات من قبل السنة السلفيين المتشددين.

إضافة إلى ما سبق أصبح للسلفيين المتشددين منابر مفتوحة ومعلنة في مناطق الطرق الصوفية وأمام أضرحة وقباب الأولياء الصالحين، تحرض على إزالة ما أسمته بالشرك والوثن وبالقوة.

الجدير بالملاحظة هنا أن هذه الأفعال العدوانية المتعصبة التي يقوم بها المتشددين السلفيين تتم تحت مرأى وعين الأجهزة الحكومية وبل أن الصوفية يرون أن هذه التحركات تتم تحت مظلة وحماية الأجهزة الأمنية، هذا من جانب ومن جانب آخر إن أعمال العنف تجاه الصوفية لم تنحصر على مناطق بعينها بل امتدت إلى جميع مناطق الصوفية وتجمعاتهم في كل مدن السودان.

وهنالك مظهر آخر للفعل العنيف تجاه المتصوفة، ويبدو أنه قد أثر بشكل ما علي صورة الصوفي التقليدي في المجتمع السوداني، وهو العنف اللفظي عبر المنابر المفتوحة والمتعددة التي استخدمها السلفيين، سواء كان عبر الندوات والحلقات المفتوحة في الأماكن العامة والأسواق، أو منابر المساجد المخصصة لهم أو عبر أشرطة الكاسيت، أو استخدام تطبيقات وسائل التواصل الاجتماعي، والتي جميعها تستدعي الدين من أجل التقليل من شأن الصوفية وتكفيرهم، والملاحظ في ذلك استخدام السخرية وعبارات التهكم ضد كرامات وبركة الشيخ الولي و الشيخ الصوفي، وقد نجح هذا الأسلوب في استقطاب فئات اجتماعية كبيرة في المجتمع خاصة الشباب المتعطلين عن العمل.

هذا العنف اللفظي كثيراً ما يتجاوز إلى السباب والشتم العلني والتحدي لشيوخ الطرق الصوفيةباستخدام اللغة العامية السودانية، ولقد لعب الاستخدام اللفظي للعامية السودانية دوراً كبيراً في التأثير على صورة الآخر الصوفي في السودان، وقد برع السلفيين خاصة الشباب منهم في استخدام العامية مع أسلوب الاستهزاء الدرامي بالشيوخ للتقليل من شأن الصوفية، خاصة في الوسائل السمعية والبصرية واللقاءات المباشرة، واستطاعوا عبر ذلك استقطاب وتأليب الشباب ضد الصوفية وشيوخهم.

لكل ذلك يمكن القول إنتمدد التيار السلفي وتوجهه نحو الفعل العنيف في العقدين السابقين، لعب دوراً هاماً في تشكيل صوره ذهنية مجتمعية جديده لواقع الطرق الصوفية في السودان.

وعى الصوفية بدلالات التحول في البنية المجتمعية السودانية:

متغيرات الواقع الديني في السودان بعد سيطرة حكومة الإنقاذ الوطني أخل بالتركيبة التقليدية في الوجدان السوداني نحو الطرق الصوفية المسيطرة على واقع التدين، فصورة الصوفي المتخيلة في الوجدان المجتمعي أصابها كثير من الوهن على ثلاثة: الأول التقليدي النمطي المتمثل في البركة والكرامة والقداسة الروحية.

الثاني: النفوذ المجتمعي والاقتصادي،

الثالث:تحولالصوفي التابع المريدإلي الكراهية والعنف نحو الآخر الديني.

إذن الصوفي على وعي بقدر ما بالتحولات المجتمعية المنعكسة نمطيتة وتقليديته من قبل المجتمع، وهذا الوعي بالتغيرينعكس في مجموعة من التحولات احدثتها الطرق الصوفية:

أولاً: أيكولوجية الطريقة الصوفية: تاريخ أماكن الطرق الصوفية في السودان وتوزيعها الجغرافي ارتبط بالنيل والأرض الزراعية المطرية فأشهر الطرق الصوفية وخاصة القادرية أمتد توزيعها الجغرافي حول النيل الأوسط والمناطق المطرية شرقاً من النيل كالطريقة القادرية العركية والطريقة المكاشفية وطريقة العبيد ود بدر، مما يعطي توزيعاً ريفياً لأهم الطرق الصوفية أمتد لقرابة الأربع قرون من الزمان، فالمكان صناعة محلية ما أن ينتقل شيخ صوفي عرف عنه الكرامات والبركة الروحية حتي تتجمع حوله فئة من أتباعه ومريدية ينسجون حوله روايات الكرامات الخارقة ليصبح مركزاً قائماً بذاته يقصده الناس للبركة. وجغرافيا الطرق الصوفية تقول إن الولي أو الشيخ لا يسعي نحو أفراد المجتمع لكن العكس أن أفراد المجتمع هم من يسعون نحو بركته وقداسته الروحية، وهذه الحالة الأيكولوجية للطريقة الصوفية لا تقتصر فقط على المجتمع السوداني بل توجد حالات مشابهه لها في المحيط الجغرافي الإقليمي. (شتاوت،جورج،2008،ص.ص11-15)

وقد لعبت بعض الأحداث التاريخية والسياسية المرتبطة بالطرق الصوفية في القرن التاسع عشر دوراً في وعي شيوخ الطرق الصوفية بأهمية التعديل الأيكولوجي للطريقة وهنا يشير "هاشم عبدالرازق" لما أسماه بالنفوذ الجديد لطرق الإحياء والتجديد، فقد أستدعي ذلك التعديل انتقالبعض الطرق الصوفية إلي أماكن جديدة في نفس الحيز الجغرافي، كالطريقة العركية، وذلك

من أجل التصدي لنفوذ الطرق الصوفية الأخرى وسط أتباعها. (عبدالرازق،هاشم،1995،ص10)

لكن في التاريخ المعاصر والحديث وخاصة مع المد السلفي السني وجدت الطرق الصوفية وخاصة القادرية، أنها مطالبه بالتوجه نحو المراكز الحضرية خاصة في الأحياء الطرفية، ومثال مدينة الخرطوم العاصمة نجد أنه تكونت مراكز للطرق الصوفية كطريقة الشيخ الصائم ديمة والطريقة السمانية، وبجانب ذلك هنالك طرق صوفية أصبحت (مع امتداد التخطيط العمراني الحضري للعاصمة الخرطوم) جزء من المدينة كطريقة الشيخ حمد وطريقة الشيخ خوجلي والباداراب وطريقة الشيخ الكباشي وبعض القباب والأضرحة لأولياء الله الصالحين، هذا الواقع الأيكولوجي أريد منه فرض نفوذ جديد للطريقة الصوفية مقابل المد السلفي السني. وهنا يجب الإشارة ة إلي أنعدد من الطرق الصوفية والتي دخلت إلى السودان في نهاية القرن الثامن عشر استقرت في المناطق الحضرية مثال لها الطريقة الختمية والطريقة الإدريسية والبرهانية. (Krarr,Ali, 1992,p.9-24)

ثانياً: اتجاه شيوخ الطرق الصوفية نحو تغيير الصورة النمطية للشيخ الصوفي وخاصة في المظهر المتعلق بالزهد والتقشف، حيث ظهر نموذج للشيخ الصوفي الفاعل في الحياة العامة "كشيخ الطريقة البرهانية، حيث أصبحوا يلبسون الزي الفاخر ويسكنون في الأحياء الراقية بمدينة الخرطوم، ويبدو أن أيدولوجية الصوفي المنسحب عن المجتمع قد تغيرت نتيجة للنقد والهجوم العنيف من شباب التيار السلفي التكفيري.

ثالثا: يتبدى وعي الصوفي بدلالة التغير في محاولة استقطاب المريدين والأتباع من طبقات اجتماعية جديدة غير طبقات المزارعين والرعاة وفقراء الريف، ليتحولوا إلى الطبقات الفقيرة في المجتمع الحضري وطلاب الجامعات والشباب الأثرياء في المجتمع الحضري، مثال ذلك الطريقة البرهانية التي معظم اتباعها من طبقات التجار الحضريين.

رابعاً: ما يميز الطريقة الصوفية في السودان وبالذات الطريقة القادرية أنها طريقة غير مركزية، بمعني أنه ليس هنالك مرجعية واحدة للطرق فلكل طريقة مركزها وشيخها وأتباعها منفصل عن الطرق الأخرى وبرغم أن اللا مركزية هذه قد أدت إلى انتشارها وكثرة أتباعها في وقت سابق (سراج الدين،عثمان،1997،ص23)، إلا أن متغيرات الواقع الديني في المجتمع السوداني وخاصة مع المد السلفي والشيعي في المناطق التقليدية للطرق الصوفية فرض علي الطرق الصوفية المتنوعة مكانياً وروحياً أن تسعي نحو

إيجاد مركزية موحده تعبر مجتمعياً وفكرياًوايدولوجياً عن الصوفي الموحد، وظهر ذلك في المجلس الأعلى للتصوف بنهاية عقد التسعينيات من القرن السابق والذي يمثل جميع شيوخ الطرق الصوفية في السودان.

خامساً: من دلالات وعي المتصوفة بتغير صورة الآخر المجتمعي، ما يمكن أن نسميه بالتصوف الجديد والذي نعرفه بانه شكل من الممارسة الصوفية يبعد عن صورة الزهد والتقشف التي كانت سمه للتصوف في السودان، مظاهره تتبدي في استخدام وسائط التكنلوجيا الحديثة وتطبيقاتها في خطاب المجتمع، وانشاء القنوات والمحطات الإذاعية والتلفزيونية المتخصصة، أيضاً التحول في اقتصاديات الطريقة الصوفية من النمط الرأسمالي التقليدي الزراعي إلى النمط الرأسمالي الحديث لاقتصاديات السوق، كذلك التوجه نحو توسيع العلاقات الخارجية للطرق الصوفية السودانية.

ورغم هذا الانفتاح نحو المجتمع إلا إن الوجود الصوفي في السودان يسجل تراجعاً، فلم تعد شعائرهم الدينية السنوية تمثل ذلك الزخم المجتمعي المعتاد، كما أن التيار الصوفي أصبح لا يمثل وجوداً شبابياً وسط التنظيمات بالحركات الدينية الأخرى في الجامعات السودانية.

سادسا: تحول المتصوفة إلى الفعل العنيف تجاه الآخر الديني المختلف (التيار السلفي) وقد ظهر هذا الفعل العنيف في العديد من المواقف، وهذا التحول نحو العنف أملته ظروف واقعية تبين الواقع المتغير للتدين في السودان في العقدين الآخرين.

النتائج:

المجتمع السوداني ما بعد العام 1989 شهد العديد من التغيرات السياسية والاقتصادية كانت عاملا مؤثرا فى تغير خارطة التدين الاسلامي وخاصه فيما يتعلق بالمكانه التقليدية للصوفي التي تراجعت مع سيطرة الاسلام السلفي والتغلغل الشيعي. ادي ذلك الي مواجهة الصوفية لهذه التغيرات وفق منهجية تسعي نحو الحفاظ على مكانتهم الدينية والاجتماعية، هذه المنهجية تقوم على تغيير ايكلوجيا الطريقة الصوفية، وصورة الشخ الزاهد المنعزل واقتصاديات الطريقة الصوفية وايجاد نمط جديد للتصوف

اذن الصوفية اصبحوا على قناعة أن خطر السنة السلفيين قد يهدد وجودهم التاريخي والديني، مع انتشار ثقافة العنف وعدم قبول الآخر وفتح الباب أمام الفتاوي التكفيرية، و عجز الحكومة المركزية فى توفير الحماية.

وخلص هذا البحث إلى مجموعة نتائج تتمحور في مجملها بتغير الصورة النمطية للصوفي بالمجتمع السوداني نتيجة لعديد من المؤثرات السياسية

والاقتصادية التي شهدها المجتمع ما بعد العام 1989. ويمكن أن نحدد النتائج التي توصل إليها البحث في النقاط التالية:

1. أن هنالك تغيراً حدث في خارطة التدين الإسلامي في السوداني تحت تأثير مد الإسلام السياسي مما أدي إلى تنامي تيارات دينية على حساب الصوفية.
2. أن تمدد التيار السلفي وتوجهه نحو الفعل العنيف خلال العشرون سنة السابقة لعب دوراً كبيراً في تغيير الصورة النمطية للتصوف.
3. تزايد الوعي الصوفي بالتحولات المجتمعية تتطلب منهم إحداث تحولات في أيكولوجية مراكز الطرق الصوفية الريفية، وتغيير الصورة التقليدية للشيخ الصوفي، والاتجاه نجو استقطاب فئات من المريدين والاتباع من طبقات اجتماعية جديدة

خاتمة:

وجد الصوفي الزاهد العابد المتقشف المسالم الذي يسعي الناس إليه لقداسته وبركته، نفسه أمام متغيرات دينية متسارعة يسودها العنف والكراهية والتشدد والتعصب من الآخر الديني السني السلفي، وتحت عباءة الفتاوي الدينية والسخرية والتهكم سعي هذا الآخر السني المتشددنحو إلغاء الصوفي وتغييبه عن الذهنية المجتمعية.

هنا صورة الآخر الصوفي في الذات المجتمعية أصبح يشوبها الكثير من التشويش الذهني والعقلي تحت تهديد الفتوي السنية المتشددة والميل إلى الاستهداف الممنهج في ظل واقع ديني أفضي إليه إسلام سياسي حاكم تبني قصداً فكرة إلغاء ومحو الآخر الديني المسيطر على العقلية السودانية المتصوفة والمتسامحة، مما أدي إلى إضعاف هيبة الطريقة الصوفية في المجتمع.

قائمة المراجع

1. إبراهيم، حيدر، صورة الاخر المختلف فكرياً: سيسيولوجيا الاختلاف والتعصب، في: الطاهر لبيب(تحرير)، صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه، مركز دراسات الوحدة العربي، بيروت، 1991.
2. إبراهيم، حيدر، سقوط المشروع الحضاري، مركز الدراسات السودانية، الخرطوم، 2008
3. إبراهيم، منتصر، السلفية الجهادية ومهددات الأمن القومي السوداني، مطبعة الحوراني؛ القاهرة، 1997
4. أبو على، أحمد، كاتب الشونة، تحقيق الشاطر بصيلي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1961.

5. الحسن،ادريس، الدين والمجتمع، ترجمة احمد الصادق، مركز الدراسات السودانية، 2002.
6. العالم، محمد، تاريخ السلفية في السودان، دار النزهة، الجماهيرية العربية الليبية، 1998.
7. ترمنجهام، سبنسر، الإسلام في السودان، ترجمة فؤاد محمد، المجلس الأعلى للثقافة، الخرطوم.1970
8. شتاوت،جورج، خريطة الأولياء في الدلتا، في: محمود عودة (تحرير)، المعبد والمسجد والمقام، مركز بحوث الشرق الأوسط، القاهرة، 2008.
9. سراج الدين، عثمان، دراسة لبعض الجوانب الاجتماعية للطريقة الصوفية: بالتطبيق على الطريقة القادرية، (رسالة ماجستير)، جامعة ام درمان الإسلامية، الخرطوم، 1997.
10. عثمان،صالح، السودان: تنامي التيار السلفي الجهادي،دار الحوصي للطباعة والنشر، أم درمان، 2009.
11. عبد الرازق،هاشم، طرق الإحياء والتجديد، مركز أبحاث البحر الأحمر، الخرطوم، 1995.
12. فول، جون، تاريخ الطريقة الختمية في السودان، ترجمة محمد سعيد القدال، مركز الدراسات السودانية، القاهرة،2002.
13. مكي، حسن، الخارطة الدعوية في السودان وآفاق التعايش، هيئة الأعمال الفكرية، الخرطوم،2007.
14. ود ضيف الله، محمد، كتاب الطبقات، تحقيق يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم، 1993.
15. E,Durkheim, The Elementary Forms of the Religious Life, Translated by Karen E. Fields, The free press, New York, 1912.
16. Hassan,Y,The Arabs and the Sudan: From the Seventh to the Early Sixteenth Century.1967
17. Krarr.Ali. The Sufi fellowships in Sudan. Oxford, 2003
18. M, weber, The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism, first in Routledge London,2001
19. www.Aljazeera.net, 14/9/2009.